الدرس الثاني:

الكتابة، ودورها في تطور الفكر الإنساني العالمي

تمهيد

تعتبر الكتابة من بين المنجزات الفكرية الكبرى التي حققها الإنسان على مدار تجربته الطويلة، كما تعتبر أبرز تمظهرٍ من تمظهرات التقدم الهائل الذي بلغته البشرية على مدار آلاف السنين. فابتكار الإنسان للكتابة هو الذي جعل العلم مشاعاً بين الناس وسهّل نقله بخفة ويسر بين البلدان والأزمان، وسمحت الكتابة بنقل أفكار الإنسان للأجيال اللاحقة ووصولها للأماكن البعيدة.

كما تعد الكتابة وسيلة للفهم والتفاهم بين أفراد أي مجتمع، وأداةً للتواصل والتقارب الفكري ووسيلة للحوار الثقافي بين المجتمعات.

فالكتابة هي ذاك الاسمنت الذي استعمله مؤسسو الإمبراطوريات العظمى وبُناتها، وهي التي استدعت الانطلاقة الكبرى لجميع فروع المعارف البشرية بما في ذلك علوم الطبيعة، كما أهدت الإنسانية الخيرات الأخرى من الثقافة والحضارة واللتين ما كان لهما معنى من دونها.

تعريف الكتابة:

هي واحدة من أهم أنماط النشاط اللغوي، وأداة لحفظ ثقافة الأمم؛ ونقلها وتطويرها، يلجأ إليها الإنسان عندما يحتاج إلى نقل المعاني من إنسان إلى آخر تفصل بينهما المسافات الزمانية والمكانية، فالكتابة تؤدي الدور الذي يعجز عن تأديته الحديث المنطوق، وهذا ما أكده الركابي بقوله "إن الكتابة وسيلة الاتصال بين الفرد وغيره، ممن تفصله عنه المسافات الزمانية والمكانية".

وتُعرف الكتابة بأنها إعادة ترميز اللغة المنطوقة في شكل خطي على الورق، من خلال أشكال ترتبط ببعضها بعضا، وفق نظام معروف، اصطلح عليه أصحاب اللغة في سابقٍ، بحيث يعد كل شكل من هذه الأشكال مقابلا لصوت لغوي يدل عليه. 2

1. تاريخ الكتابة وتطورها الكرونولوجي:

أ. الكتابة في بلاد ما بين الرافدين:

ظهر أقدم نظام معروف للكتابة في بلاد ما بين الرافدين عام أربعة آلاف قبل الميلاد، واُخترعت أنظمة كتابة أخرى على نحو مستقل في وادي السند في الألف الثالثة قبل الميلاد، وفي الصين في الألف الثانية قبل الميلاد، وفي أمريكا الوسطى في الألف الأولى قبل الميلاد، بيد أن الكتابة تطورت أساسا في بلاد ما بين النهرين، سيما في مدينة سومر الواقعة إلى الجنوب، والتي سرعان ما تحضّرت ونما عدد سكانها، وقُسم العمل بين سكانها، وبالتالي مهدت لتطور النظم السياسية ثمة.

أما عن طرق الكتابة الأولى في بلادها ما بين النهرين، فقد دُمغت الألواح الطينية الناعمة بعلامات محددة ومتفق عليها، مثلّت كل واحدة منها كلمات ومقاطع صوتية محددة، مع استخدام قلمٍ إسفيني مستدق الطرف wedge-shaped stylus يشبه المسمار. ووُضعت تلك العلامات الكتابية في صفوف أفقية، ومن الأعلى إلى الأسفل، وقُرئت من اليسار إلى اليمين على نفس النحو الذي تُقرأ به الكتابة الإنجليزية اليوم. وقد أعطى شكل القلم وسنه المدقق الكتابة المسمارية مظهرها المميز لها، وكذلك أعطاها الاسم المحدث الذي نعرفها به الآن، أي" الكتابة المسمارية" ثم عمل الكتبة على تجفيف تلك الألواح الطينية. (وربما أحرقوها أحيانا في الأفران)، إذ تتوقف عملية الحرق بناءً على أهمية النص المدون على تلك الألواح. 3

ولعل ما نعرفه عن شعب بابل وبلاد الرافدين (العراق حاليا) هو أكثر مما نعرفه عن الحضارات القديمة الأخرى، لسبب بسيط للغاية، وهو أنهم كانوا يكتبون تاريخهم على ألواح طينية، ولحسن

الحظ فقد نجت الآلاف من هذه الألواح التي كتبت منذ ستة آلاف سنة تقريبا، لتروي لنا كيف كان البابليون ينظرون إلى عالمهم، حيث يظهر أنهم كانوا منظمين للغاية، وكانوا يحتفظون بسجلات دقيقة عن مواسم الحصاد ومخزوناتهم من الحبوب والشؤون المالية الدولة، بيد أن الكهنة أمضوا الكثير من وقتهم في الاهتمام بالبيانات والأرقام المتعلقة بالحياة في العصور القديمة، كما أنهم كانوا هم (العلماء) الاختصاصيون، فكانوا يقومون بمسح الأرض، وقياس المسافات، ومراقبة السماء، وتطوير التقنيات حسب ما تظهره هذه الكتابات المسمارية. 4

وللملك حمورابي (1792-1750 ق.م) وهو الملك السادس في السلالة البابلية الأولى، فضل كبير في تشجيع الكتابة المسمارية، خاصةً أنه تم وضع قوانين جديدة في عهده سُميت شريعة حمورابي وكُتب نصها باللغة المسمارية. تتكون هذه الشريعة من ثلاثة أجزاء: مقدمة، ونصوص القوانين، وخاتمة. وتضمنت هذه الشريعة 282 مادة مكتوبة بالخط المسماري ومنقوشة على ألواح من البازلت الأسود، أين يصوغ حمورابي في المقدمة السبب الرئيسي لوضعه هذه القوانين، والتي ينبغي أن تحمي الضعفاء وتدافع عن العدالة في مجملها. 5

وعلى الرغم من أن الكتابة المسمارية تطورت لاستخدامها على الطين الرطب منذ أقدم العصور، فقد نقشت الكتابات الرسمية على الحجر والمعادن كذلك، ولكن ليس ثم دليل على أنها نقشت بقلم أو بفرشاة باستخدام المداد.

ب. الكتابة عند الفراعنة في مصر القديمة:

وعلى صعيد آخر، لم يرتبط تطور الكتابة في مصر (على النقيض من بلاد ما بين النهرين) باستخدام أداة بعينها أو مادة بعينها. وعلى الرغم من أنه يبدو أن سكان بلاد ما بين النهرين قد ألهموا المصريين الكتابة لأنهم عرفوها قبلهم، فإن أهل مصر لم يستخدموا ألواحا طينية قط. كما لم يستخدموا أقلاما مسمارية للكتابة على ألواح الطين، وكذلك لم يقلدوا نظام الكتابة في بلاد ما بين النهرين الذي يعتمد على الإشارات والمقاطع الصوتية. بل طوروا نظاما مصورا من الكتابة خاصا بهم، وهو الذي عرف باسم الهيروغليفية، وهي كلمة يونانية تعني "النقش المقدس".

وقد عُثر على أول دليل على الكتابة الهيروغليفية على مجموعة من لوحات التجميل الحجرية المنحوتة بالنقش بالبارز، إحداها "لوحة نامر" المحفوظة في المتحف المصري بالقاهرة، والتي يعود تاريخها إلى عام 3000 ق.م، وهي تصور عددا كبيرا من المشاهد التي تحتفي بانتصار الملك "نامر" (آخر ملوك مصر من عصر ما قبل الأسرات) على أعدائه. 6

مع التنويه أن الكتابة الهيروغليفية تنقسم بدزرها إلى مستويين اثنين: الكتابة الهيراطيقية (الكهنوتية) والكتابة الديموطيقية:

أما الكتابة الهيراطيقية (الكهنوتية) فهي نسخة مبسطة من الهيروغليفية، طورت بغرض الاستخدام العملي في الحياة اليومية. وعلى النقيض من الهيروغليفية- التي يمكن نحتها أو رسمها على مجموعة متنوعة من المواد- لم تكتب الهيراطيقية إلا على ورق البردي، وبالمداد المصنوع من الكربون، وباستخدام قلم مصنوع من القصب وعلى هذا النحو لم تنقش الهيراطيقية على الحجر –إلا في القليل النادر من الأحوال- ولا سيما في العصور القديمة المتأخرة، و سواء كتبت الهيراطيقية أفقيا أو رأسيا، فقد تميزت دائما بأنها كانت تكتب من اليمين إلى اليسار. وفي التطور الأخير كتبت في أسطر أفقية فحسب.

أما الشكل الثاني من أشكال الكتابة المصرية القديمة، فهي الكتابة الديموطيقية، وهي كتابة العوام، وكانت أكثر شيوعا، و من ثم استخدمت عددا كبيرا من الاختصارات والأحرف المركبة بوصفها وسيلة لاختزال الكلمات والروابط التي تربطها معا. وأضحت الديموطيقية شائعة الاستخدام منذ القرن السابع قبل الميلاد، حتى القرن الخامس ميلادي، وهو ما سهل على جان فرانسوا شامبليون (Jean François Champol-lion) مهمته في قراءة الهيروغليفية، فتمكن من فك رموزها في القرن التاسع عشر. 7

وقد حافظ مناخ مصر –الذي يتسم بشدة الجفاف- على عدد كبير من القطع الأثرية المبكرة التي منحتنا نظرة عامة لا يعوزها الشمول على تاريخ الكتابة المصرية. فإضافةً إلى النقوش على الجدران والتماثيل والكتابة على لفافات البردي، نُقشت النصوص المصرية على الكتان المنسوج المستخدم في القرابين، وأكفان الموتى وأغطية المومياوات. واعتاد الطلاب المصريون الكتابة

على ألواح خشبية مستطيلة غلفت بطبقة رقيقة من الجص سمحت لهم بمحو كتاباتهم بسهولة ويسر. كما استخدم المصريون أيضا الآنيات الفخارية وشقف الفخار لتعلم الكتابة، أو لكتابة المفكرات والحسابات المختصرة. وعلى الرغم من سعي الكتبة للكتابة بخط متقن لا يعوزه الوضوح، فلا يبدو أن المصريين قدروا الخط الجميل بوصفه فنا خالصا قط.

وقد صدّر المصريون أوراق البردي إلى معظم المجتمعات المتعلمة في عالم حوض البحر المتوسط القديم، بيد أن النماذج التي وصلتنا من خارج نطاق مناخ المصري الجاف نادرة. وأقدم بردية محفوظة عثر عليها خارج مصر هي لفاقة كتبت بالعبرية نحو 750 ق.م، وجدت في كهف بالقرب من البحر الميت. 8

وعلى ما يشير مؤرخ الحضارة الإنكليزي المعروف–ارنولد توينبي– فإن الإنسان قضى الشطر الأعظم من مجموع وجوده على الأرض والذي يقدرو الآن بـــ600 ألف إلى مليون سنة في حالة الهمجية، و فقط بنتيجة الازدهار "الحديث" للحضارة خلال الستة آلاف الأخيرة تحقق إيجاد الطرق المختلفة لوضع الملاحظات المدونة والمحافظة عليها ذلك الفن الذي وُضع في أيدي الإنسانية، وذلك بفضل الكتابة في الحضارتين البالية والفرعونية.9

إن الكتابة جعلت الإنسان يفكر في نفسه، فبفضلها فقط صار التفكير العقلاني الجماعي ممكنا وتأمل الإنسان في أصله وفي ماهية وجوده ومغزاه، كما أن الثقافة الروحية والتعاليم الفلسفية و ديانات الإنسانية العظمى صارت ممكنة أيضا.

استعملت الهيرغليفية كنمط كتابة لتسجيل الأحداث حول المعالم والنصوص الدينية على جدران المعابد والمقابر وأسطح التماثيل والألواح الحجرية المنقوشة والألواح الخشبية الملونة، وبسبب طبيعتها كانت تعد منذ القدم نظامًا للكتابة وفنًا زخرفيًا جميلاً في آن واحد. 11

جـ. الكتابة العبرية واليونانية

تعد العبرية واحدة من الخطوط التي تطورت من الأبجدية الفينيقية، والتي تطورت بدورها في مناطق غرب آسيا خلال الألف الثانية قبل الميلاد. والأبجدية (Alphabet) نظامٌ للكتابة مثّل فيه

كل صوت في اللغة بعلامة مميزة له. وكان ظهور الأبجدية تطورا ثوريا بحق، وذلك لأنها نظام كان يمكن تطبيقه على أية لغة، وليس على اللغات السامية فحسب.

ومن هذا المبدأ، استعار اليونانيون الأبجدية السامية من الفينيقيين العبريين للغتهم، وكيّفوها لكتاباتهم في أوائل الألف الأولى قبل الميلاد.

د. الكتابات الأبجدية الشرقأوسطية:

بدأت مع **الكتابة الأوغاريتية** (نسبة إلى مدينة أوغاريت السورية المعروفة اليوم باسم اللاذقية)، حيث تطورت الكتابة في هذه المرحلة، وتُعتبر المرحلة الأخيرة، وقد اخترعها الكنعانيون الذين كانوا يسكنون الساحل في الشرق العربي، حيث اكتشفت الرُّقم المكتوب عليها بالخط المسماري في أوغاريت، والتي تمثل الشكل الأول للأبجدية العربية، حيث كانت تحتوي على ثمانٍ وعشرين حرفاً، وظهرت فيها الهمزة، ولكنها لم تنتشر خارج حدود أوغاريت، وتُكتب من اليسار إلى اليمين، ثم **الكتابة الفينيقية** والتي هي أصل الكتابات الأبجدية العالمية، حيث نقلها التجار الفينيقيون إلى اليونان، والرومان، ونشرها الآراميون في الشرق: بلاد فارس، الهند، آسية الوسطى، وجنوب شرقي آسيا، وقد انتشرت نقوشها انتشاراً واسعاً أيضاً في سورية، آسية الصغرى، بلاد الرافدين، قبرص، رودس، سردينية، مالطة، مصر، اليونان، وتتألف من اثنين وعشرين حرفاً، وقد استمرت لألف عام، وتُكتب حروفها منفصلةً، واتجاهها من اليمين إلى اليسار. ثم **الكتابة الآرامية** التي تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، حيث كان الآراميون يسكنون في بلاد الشام إلى جوار الفينيقيين، فأخذوا كتابتهم، وبقيت حروفها تُكتب منفصلةً، ولكنهم طوروها، فجعلوها أشكالاً مربعةً، فأُطلق عليها الكتابة الآرامية المُربّعة، وقد استخدمها الأنباط، والسريان، والتدمريون، حيث كانت لغة العلم والوجاهة، فنقشوا بها على الحجارة وثائقهم، واشتقوا منها قلمهم الخاص، فنشأ القلم الآرامي السرياني، ثم جاء الأنباط، في كتاباتهم، ولكنهم عدّلوا عليها بكتابة حروفها متصلةً، فنشأ القلم الآرامي النبطي متشابهاً مع القلم الآرامي السرياني من حيث المبدأ، ولكنه يختلف عنه في الشكل. 12

هـ. الكتابة العربية

ظهرت الكتابة العربية في القرنين السادس والسابع الميلاديين، في المرحلة الانتقالية بين النبطية المُتأخّرة والعربية الكاملة، وتتمثّل في النقوش التي اكتشفت في زبد، وأسيس، وحران، وأم الجمال، ونقش جبل رم الذي بدت من خلاله تباشير العربية الأولى، وتتألف من (29) حرفاً.

يرى الباحثون أن العرب الشماليين قد اطلعوا على القلمين السرياني، والنبطي، والقلم اليمني المُسند، فدونوا كتاباتهم بها، وعند المقارنة بين حروف العربية والنبطية وجدوا تشابهاً بينها، فوجدوا أن الخط الحجازي (النسخي) أصله نبطي، ويرى باحثون آخرون أن الخط العربي الكوفي، والذي يتميز بأشكاله الهندسية أصله القلم السرياني (الأسطرنيجيلي)، وكلاهما يعودان إلى أصلٍ واحد، وهو القلم الآرامي، الذي يعود بدوره إلى القلم الفينيقي، ثم اشتقّت العربية من القلمين النسخي والكوفي، وظهر لها أشكالٌ متعدّدة، مثل: الثلث، الرُّقعة، الديواني، الفارسي). 13

3. أهمية الكتابة:

أصبحت القدرة على التواصل مع الآخرين كتابيا جزءا من الحياة اليومية للإنسان المعاصر، وبدون تحصيل هذه العملية اللغوية لا يتمكن المرء من التفاعل مع الحياة بشكل جيد، وهذا الدور الذي تلعبه الكتابة في الحياة يتطلب الاهتمام بتعليمها وتجاوز صعوباتها، وللكتابة أهمية كبرى تتمثل فيما يتي:

- أن للكتابة مكانة مميزة في حياة الإنسان من خلال كونها إبتداعا صنعه العقل البشري في صورة لم يولد بها ابتكار من قبل، وهي أعظم اختراع وصل إليه الإنسان عبر تاريخه الطويل.
- عن طريقها يمكن تسجيل التراث وحفظه للأجيال القادمة.
- تعد الكتابة عنصرا أساسيا من عناصر الثقافة، وضرورة اجتماعية يتوقف عليها بقاء الحضارات وانتقالها من جيل لآخر.
- تثبت الكتابة الحقوق وتأّمن الإنسان من النسيان وتحفظ العهود والمواثيق.

- هي وسيلة من وسائل الاتصال والتعبير عما يدور في النفس وأداة لبيان ما تم تحصيله من معلومات ووسيلة للتفكير المنتظم.
- انها شرطا اساسيا لمحو الامية .
- أداة رئيسية للتعلم بكافة المراحل.
- وسيلة فاعلة لحفظ التراث ونقله.
- تعد شهادة تسجيل الأحداث والقضايا والوقائع .
- أداة للإبداع ووسيلته .
- اداة رئيسية من ادوات الاعلام و خصوصا في العصر الحاضر.
- تعد الكتابة المحصلة النهائية لعلم اللغة، فتعليم القراءة والكتابة والاستماع والتحدث والأدب والنحو هو في حقيقته تعليم الكتابة، بهدف تمكين الطلاب على الكتابة السليمة التي تمكنهم من بث المشاعر والإعراب عن الاحاسيس والخلجات النفسية.

4. **خصائص الكتابة**:

1- **الكتابة فن اتصالي**:

فالاتصال يعني نقل معلومات، أو إعطاء تعليمات، أو نقل تحية أو طلب. وهي عملية تتطلب وجود عدة مكونات هي المرسل (الكاتب) ومستقبل (القارئ) وبينهما رسالة .

وقد لجأ الإنسان إلى الكتابة عندما احتاج لنقل المعاني، وقضاء الحاجات من شخص لآخر بَعُدَ بينهما الزمان والمكان، فطلبات التوظف وتبادل الرسائل بين الأصدقاء، وما شابه ذلك من كتابات تتصل اتصالاً وثيقاً بحياة الإنسان ، وحاجته للاتصال مع الغير. والكتابة كفن اتصالي تقوم أساساً على استخدامها في مواقف اجتماعية،حيث أنها تعد مظهراً من مظاهر هذا الاتصال حيث يستخدم الطالب الكتابة في مواقف حياتية.

2- **الكتابة عملية معقدة**:

ينظر للكتابة – الآن – على أنها عملية عقلية، علاوة على كونها منتجاً نهائياً، فالكاتب لكي يكتب لابد له أن يسير في إطار ثلاث عمليات أساسية :

- علمية التخطيط للكتابة.
- عملية التحرير أو الإنشاء.
- عملية المراجعة.

وكل عملية من هذه العمليات الثلاث تتضمن مجموعة من الخطوات الإجرائية الجزئية الخاصة بها، بحيث تتكامل هذه العمليات لإنتاج العمل الكتابي، ولا يعني تحديد هذه العمليات بهذا الشكل

على أنها عمليات منفصلة، بل هي عمليات متداخلة، كما أنها لا تسير في اتجاه خطي هكذا من التخطيط إلى المراجعة، ولكنها تأخذ الشكل الدائري بحيث يعود الكاتب من مرحلة التنقيح إلى مرحلة التخطيط؛ لتعديل مساره وتجويد عمله الكتابي.

3- **الكتابة عملية ترميز للرسالة اللغوية**:

تهدف الكتابة إلى ترميز اللغة في شكل خطي، ويتم ذلك من خلال ترابط مجموعة من الحروف، بحيث يكون لكل حرف صوت لغوي يدل عليه، بهدف تقديم رسالة من مرسل وهو الكاتب (بعد أن يقوم بتركيب هذه الرسالة في صورة أفكار، وجمل، وألفاظ، وتراكيب) إلى مستقبل وهو القارئ؛ بغية تحقيق تواصل جيد بينهما،

4- **الكتابة فن محكوم بقواعد**:

للكتابة مجموعة من القواعد التي ينبغي على الكاتب أن يلتزم بها، ومن هذه القواعد ما يرتبط بتنظيم العمل الكتابي، ومنها ما يرتبط بكتابة الفقرة.ومنها ما يتصل بآليات الكتابة ومنها ما يتصل بقواعد استخدام أدوات الربط بين الجمل والفقرات.

5- **الكتابة عملية تفكير**:

إن الكتابة في أساسها عملية تفكير، فالإنسان كما قيل يفكر بقلمه، فالكاتب يفكر في كل مرحلة من مراحل الكتابة، وذلك قيل "إذا أردت أن تضع كلاماً فأخطر معانيه ببالك". 10

قائمة المراجع المستعملة في الدرس حسب ترتيب ورودها:

1. محمد إدريس محمود عبد الرحمن ربابعه: فاعلية وحدات تعليمية قائمة على الثقافة العربية في تنمية مهارتي التحدث والكتابة لدى متعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها، مجلة الباحث، المجلد 10، العدد2، الجزائر، 2018، ص 191.
2. يوسف مناصرة: تقويم مناهج تعليم القراءة والكتابة في المرحلة الابتدائية الدنيا في- الأردن" أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في علوم التربية، جامعة عين شمس، القاهرة، د.س.ن، ص 113.
3. جوناثان م. بلوم: قصة الورق، تاريخ الورق في اعالم الإسلامي قبل ظهور الطباعة، دار أدب للنشر والتوزيع، الرياض، 2021، ص 67.
4. ويليام بينوم: مختصر تاريخ العالم، دار الكتب العلمية، بغداد، 2018، ص 09.
5. دينيس أليكسانردوفيتش تشيكالوف وفلاديمير كوندراشوف: تاريخ الثقافة العالمية، مشروع كلة للترجمة، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2014، ص 39.
6. جوناثان م. بلوم، مرجع سبق ذكره، ص 70.
7. جوناثان م. بلوم، مرجع سبق ذكره، ص 72.

8. جوناثان م. بلوم، مرجع سبق ذكره، ص 72.
9. إرنيست دوبلهوفر، رموز ومعجزات، دراسات في الطرف والمناهج التي استخدمت قراءة لكتابات القديمة، دار علاء الدين، دمشق، 2013، ص 19.
10. بليغ حمدي إسماعيل: الكتابة الأكاديمية، منشورات وكالة الصحافة العربية، القاهرة، 2022، ص 122.
11. يوهانس فريدريش: تاريخ الكتابة، الهيئة السورية العامة للكتب، دمشق، 2013، ص 57.
12. فرنسيس روجرز: قصة الكتابة والطباعة، من الصخرة المنقوشة إلى الصفحة المبطوعة، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، د س ن، ص 113.
13. علي إبراهيم محمد: تاريخ الكتابة العربية، دار المشرق العربي، الجيزة، 2019، ص 57.